الوسطية والاعتدال وتأثيرها على الأمة

للشيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

-حفظه الله تعالى-

[شريط مفرّغ]✍

بسم الله الرحمن الرحيم

الوسطية المطلوبة -قبل أن ندخل في أهمية طرح هذا الموضوع- لها سمات، وهذه السمات موجودة في النصوص ومجودة في سلوك الصحابة وفي سلوك أئمة الإسلام.

أما سماتها فالوسطية والاعتدال هي سمة الشريعة بنص القرآن....

فيهم ممن ألهوهم وبين النواصب الذين ذموا بعض الصحابة، فأهل السنة والجماعة يثنون على جميع الصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون فيهم ما قال الله جل وعلا ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾[الفتح:18] وفي أبواب الإمامة والولاية أهل السنة والجماعة بل دين الإسلام وسط بين الذين اختلقوا بين هذه المسألة العظيمة منم الخوارج في القول والعمل الذين يرون الخروج على الولاة فيما يرون منهم من أخطاء أو من منكرات، ووسط بين هؤلاء الغلاة الذين يرون الخروج، والطرف الآخر الذي لا يرى نصيحة الإمام أصلا ويرى أن ما قاله ولي الأمر فهو صواب مطلقا لأنهم نواب الله جل وعلا في أرضه.

وأهل السنة والجماعة يرون الطاعة كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل أمر به في أنه يجب على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره وألا ينازع الأمر أهله كما ثبت في صحيح مسلم.

فأمر الولاية عظيم وشأنه عظيم لكن معه في منهج الوسطية النصح والبيان والتعاون مع ولاة الأمر على البر والتقوى.

كذلك منهج الوسطية والاعتدال عدل ووسط في الفقه والأحكام:

أولا مراعاة الاجتهاد، فالاجتهـاد مـاض لم يغلـق، وبـاب الاجتهـاد منهم من فتحه على مصـرعيه حـتى دخله من ليس بأهل له ومن لم يع النصوص ولا القواعد والأصـول، ففتحـوا على مصـرعيه ونسـمع اليـوم من يجتهد في المسـائل الشـرعية والنـوازل العظيمة مما لو كـان في عهد عمر رَضِـيَ اللـهُ عنْـهُ لجمع لها أهل البـدر، واليـوم تـنزل المسـائل العظيمة بالأمة فيفـتي بها الواحد ويفـتي بها الاثنـان من عامة طلبة العلم ممن ليسـوا مـؤهلين لذلك في رسـوخ العلم مما يجتنبه الجمهـرة من العلمـاء إلا أن يجتمعوا جميعا لينظروا في هذه النازلة.

فالاجتهاد مفتوح بابه لكن هذا الفتح بين فئتين:

بين من يـرى غلق بـاب الاجتهـاد أصلا والبقـاء على نصوص السابقين من أهل العلم.

وبين من يرى باب الاجتهـاد مفتوحا لكل أحد حـتى ولم يلم يكن أهلا لذلك.

الاعتدال في الفقه والأحكام والوسطية في ذلك

تدعونا للوسطية بين جهتين: بين لزوم المذهبية ونزع المذاهب.

فهناك من يطلب نزع المـذاهب الفقهية وأن المـذاهب ليست بحق على إطلاقها وإنما كـانت لفـترة مضـت، والـواجب الرجـوع إلى كتب الحـديث والسـنة ونبذ كتب المذاهب مهما كانت.

وبين فرقة أخرى وفئة أخرى ترى البقـاء على نصـوص المذاهب وأنهم أدرى في ذلك وأن نصوصهم وكلام علماء المذاهب يصلح لما بقي من الزمان.

والحق وسط بين الفئـتين لأن كلام علمـاء المـذاهب مطلـوب فهمه لأنهم الـذين فهمـوا الشـريعة وصـوروها؛

لكن لكل زمن أحكام، ولكل زمن فهم، والشريعة منوطة بالمقاصد ومنوطة وبتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

فالبقاء على نصوص علماء سابقين ليسوا معنا في هذا الـوقت وليسـوا متطـرقين إلى ما نعيشه وما عنـدنا من علل ومقاصد يجب مراعاتها ومصـــــــالح يجب مراعاتها ومفاسد يجب درؤها هــــذا ليس من بـــاب الاعتـــدال؛ فالاعتـدال الأخذ بـأقوالهم فهم مـراداتهم وأخذ أحكـامهم ومعرفة مآخـــذهم؛ ولكن يجب النظر في النصــوص لأن النصــوص واســعة تسع الأزمنــة، والأخذ بكلام العلمــاء مطلوب في فهم تلك النصوص.

فالإســلام وسط في المذهبية ما بين معطّلة المــذهب وما بين الغلاة في المذهبية.

كذلك الوسطية والاعتدال سمة لهذا الدين وسمة لأهل السنة والجماعة فيما بين التشديد المفرط والتسـير غـير المنضبط.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أمر بالتيسـير وحض عليه وكان إذا خُيّر بين أمرين لاختار أيسرهما ما لم يكن إثمـا. وهذا فيه نفي للتشديد الذي هو إيقاع في الحرج، فالـذين يأخــذون بالتشــديد وأن الحق في الشــدة وأن الحق في التغليظ ليس هذا بحق بل هو نـوع من الغلو في الأحكـام يجب نبـذه، وإنما الحق في أن نأخذ بالتشـديد في مكانه الـــذي دل عليه النص وحينئذ لا يســمى تشـــديدا ونأخذ بالتيســــــير حيث دل النص على ذلك أو حيث خُيرنا بين أمرين لم يرد الدليل في أحدهما نصا فإننا نختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

وهـــذا يُهم جـــدا في البحـــوث وفي المقـــالات وفي المحاضرات وفيما نوجه فيه الشــباب نجتهد في أن نبتعد عن التشــديد الـــذي يضر وعن الأخذ بالغلظة وعن الأخذ

بالشدة التي تجعل الناس الـذين يوجهـون ويحاضر عليهم ويرشـــدون يأخـــذون بالمأخذ الأشد الـــذي يجعل في النفوس حرجا حتى من التعايش مع الناس.

والواجب أن يكون هناك أخذ بالوسط والاعتدال فيذلك كلـه؛ لأن الشـريعة جـاءت بنفي الحـرج «**وإن المنْبَت لا أرض انقطع ولا ظهرا أبقى**».

كـذلك الشـريعة في أحكامها وفقهها ومقاصـدها وسط في المصالح والمفاسد:

غلا أناس في المصالح حتى قدموا المصـلحة المتوهمة على النص، وحتى قـال بعضـهم: حيث وجـدت المصـلحة فثم شرع الله.

وغلا آخــرون حيث رأوا إلغــاء المصــالح مطلقا والنظر في النصـوص وأن النصـوص فقط هي المصـلحة والأخذ بظاهر النصوص، والشريعة شريعة معللـة، شـريعة مبنية على مصـــالح وعلى درء المفاســـد، شـــريعة مبنية على تحقيق المقاصـد، ومن فاته العلم بقواعد المصــالح ودرء المفاسد، فاته العلم بقواعد الشـريعة ومقاصد الشـريعة، فإنه يفوته تحقيق هذه الشريعة المباركة، فهذه الشـريعة المباركة شــريعة الإســلام شــريعة مبنية على علل مبنية على مقاصـد، مبنية على رعاية المصـالح مبنية في الفقه على معرفة الفـــــرق والجمع بين الأحكـــــام، فمن فاته معرفة المقاصد والمصـالح والمفاسد وفاته معرفة العلل المتوخـاة ومن الأحكـام وفاته معرفة الجمع والفـرق في الأحكام المنصوص عليها أو الـتي اجتهد فيها العلمـاء فإنه لا مجال له في الاجتهاد ولا مجال له في الحكم ولا مجال له في رؤية أحوال الناس.

لهذا يجب علينا أن نرعى الوسط ما بين الـذين ينفـون المصـالح مطلقـا، وما بين الـذين يغلـون فيهـا، فشـريعتنا معللة نأخذ بالمصالح ومقاصد الشريعة.

ولهـــذا نـــرى كلام أهل العلم الراســـخين فيه من مثل الإمـــام أحمد وقبله الشـــافعي والإمـــام مالك وأبو حنيفة وكلام شـــيخ الإســـلام ابن تيمية وابن القيم في مســـائل كثيرة يرون فيها المصـالح المنوطة بـالنص حـتى تكلمـوا في مسائل ربما خالفت ما عليه الفتـوى اليـوم لرعـايتهم للمصـــــالح المتوخـــــاة من الشـــــريعة، فرعاية المقاصد والمصالح مطلب شرعي ضروري لتأصيل منهج الوسطية والاعتدال في الأمور.

من أنـــواع التطبيقـــات لهـــذا الأمر وهو الوســـطية والاعتدال وهذا المنهج القويم.

الوسطية والاعتدال في الحكم على الأشياء.

الأشـــياء تتجـــدد والقضـــايا تتنـــوع وكل يـــوم لنا جديد ولاشـــك، فـــالزمن له حركـــة، والمدنية ولادة والحضـــارة متوقـــدة، ولن تقف عند حكم فقيـــه، ولن تقف عند حكم داعية أو عند تنظير منظـر، الـزمن يتحـرك والـزمن ولاّد، والمدنية تتولد وتنمو كما هو مشاهد ومنظـور في الـزمن الحاضر والحضارة والأزمنة الماضية.

ولابد حينئذ من أن يكون هناك منهج واضح معتدل:

في الحكم على الأشياء.

في الحكم على الأوضاع.

في الحكم على الأشخاص.

في الحكم على الأفكار وما يطرح.

في الحكم على النوايا والمقاصد.

في الحكم على المجتمعات.

في الحكم على الدول.

في الحكم على العلماء.
في الحكم على الدعاة.
في الحكم على الناس.

وهــذا المنهج الوسط يجب أن يؤصل في أطروحــات وفي رسائل حتى لا يكون الناس الذين يرومـون الإصـلاح ويرومون الدعوة ويرومون الإرشـاد، حـتى لا يكـون طلبة العلم في غيبة عن المنهج المعتدل في ذلك.

من قواعد أهل العلم الحكم على الشـــره فـــرع عن تصوره، والله جل وعلا يقول لنا ﴿**وَلاَ تَقْـفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[الإسـراء:36]، فمن أراد أن يحكم على شيء دون علم كامل بهذا الشـيء أو يحكم على وضع أو يحكم على شـخص أو يحكم على أفكــارٍ وأطروحــات أو يحكم على نوايا ومقاصد دون معرفة شـرعية بـذلك فإنه حينئذ يقْف ما ليس له به علم.

والــواجب علينا أن تضع هــذه الآية نصب أعيننــا، وأن نضع قـــول الله جل وعلا في النهي عن القـــول بلا علم وحيث جعله قرينا للشرك بقوله ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:169]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ نهى عن القــول بلا علم وأن من يفــتي بغــير علم فإنما يتقحم النار، حينئذ فكيف نحكم على الأوضاع؟ الناس كما ترون يحكمون على كل شيء.

فهل يليق بأهل الفكر والعلم وأهل المنهج الفكـــــري والمنهج المســــتقيم في النظر والتأمل أن يكونــــوا مسـتعجلين وأن يكونـوا من غـير ذوي الأنـاة في الحكم على الأشياء؟

أنتم نخبة -ســواء من الطلاب من ذوي المســتويات العالية أو من غيرهم- أنتم النخبة، فكيف يسوء أن يكـون لكل شــيء منهج إلا التفكــير والحكم على الأشــياء بلا

منهج، هل سوغ أن يترك الناس بكب أحد طريقة في الحكم على الأشياء، حينئذ ستنتج أشياء وأشياء وأشياء من مثل ما رأينا وسينتج هناك أفكار وآراء وأحكام على الأوضاع والأشخاص والمجتمعات والدول وحتى حكم على النوايا وأهل العلم بما ترون وبما لا ترون في المستقبل، هل يسوغ أن يكون هناك غياب لمنهج التفكير في الحكم على الأشياء، إنما نطالب بمنهج نفكر فيه ونفكر به، بمنهج يكون قاطعة للتفكير، كيف يفكر كيف تبني النتائج على مقدماتها؟ هل يسوغ أن يكون هناك حكم على النتائج حكم على الأشياء وحصول نتائج في الحكم أو في العمل بدون مقدمات سليمة؟ كيف نصحح الأفكار؟ كيف نصحح منهج الحكم على الأشياء؟

هذا من أهل المهمات، الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

من القواعد أنه ليس لكل أحد أن يقتحكم الحكم على كل مطلب، هناك أشياء عظيمة بجب أن تترك للناس الكبار؛ للناس الذين ينظرون للأمور بمنظار شامل، أنت لا تعرف كل شيء في الأمور، فكيف تحكم على كل شيء، هل يسوغ لطالب علم أو منتسب أو حتى من المثقفين أو من عامة الناس أن ينصب نفسه حكما على أوضاع، حكما على دولة، حكما على علماء، حكما على أفكار، دون حصر ودون نظر ودون تطبيق للقواعد الشرعية.

من الناس من يروم أن يكون ديدنه في الحكم الأخذ ببعض الأشياء، فيرى نصا واحدا لديه كافيا في الحكم الكلي على ذلك، ولو كان الأمر كذلك لما كان الفقهاء قليلين كيف تميز فقهاء الإسلام؟ لأنهم نظروا في النصوص جميعا، ثم نظروا في النصوص ونظروا في

عللهـــا، ونظـــروا في المقاصد ونظـــروا في المصـــالح والمفاسد، فـالحكم الشـرعي لا ينـاط بشـيء واحد ينظر فيه المرء.

فلابد من الاعتـــدال في الحكم على الأشـــياء ما بين طـرف يغلو فيحكم بمجـرد خـاطر وقع لـه، وما بين آخر يترك الأمر وكأنه لا يعنيه.

نحتــاج إلى وسط ما بين الغلاة الــذين يحكمــون دائما بالأســوء من الأحكــام على الأشــياء وعلى الأشــخاص، ويحكمــون بــالظن، ويسـيئون النظــر، ويسـيئون الظن، ويحكمون على كلمة قالها شــخص أو أمر تبنته جهة على الحكم على تلك الجهة بكلها.

واجب أن يكون المـرء متوسـطا موازنا بين الإيجابيـات والســلبيات، موازيا بين المصــالح والمفاســد، موازنا في الحكم على الأشياء ما بين الغالي فيها والجافي عنها.

فالـــذي يـــروم الحكم بـــدون توسط فإنه يـــذهب إلى الخروج عن اعتدال الشريعة وعن الاعتدال في الأمور.

الأشــخاص، المســلم الأصل فيه الســلامة، الأصل في المسلم السلامة، ليس الأصل في المســلم الشـك، ليس الأصل في المسلم ظن الســوء الأصل في المســلم، ولو كان عنده ما لا ينبغي من الأعمـال والأقـوال؛ لكن الأصل فيه الســـــــلامة، ليس الأصل فيه الشك والأصل فيه أنه يقول سوءا أو يذهب إلى سـوء، الأصل في الأفكـار الـتي يطرحها مســـلم أن يكـــون ديدنه فيها حب الشر أو حب المخالفة أو الوقيعة أو الإفســـــــاد؛ ولكن ديدنه في ذلك الخــير من حيث الأفكـار إلا إن ثبت خلاف ذلك من قــول صريح أو عمل صريح، فإنه حينئذ يكون خلاف ذلك.

النوايا والمقاصد يجب اعتبار الظاهر فيها، وأن لا نحكم على نوايا ومقاصد الناس باعتبار ظاهر سلوكي أو ظـاهر

قـــــولي؛ لأن النوايا والمقاصد علمها عند الله جل وعلا، ويجب علينا الحـذر من أن نظن سـوءا بالنـاس والله جل وعلا يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُـوا كَثِـيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:12]، وقال أيضا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ فيما جاء في الحديث لما جاءت الشهادة قـال:« **هل رأيت الشمس**» قال: نعم. قال «**على مثلها فاشهد أو فدع**».

الوسطية في التفكير مطلوبة تفكير الشباب اليوم؛ بل تفكير النـاس بل حـتى تفكـير بعض الخاصة نـراه متفرقا متشــــــعبا بين عقل جامد أو عاطفة جامحـــــــة، العقل والإدراك والعقل والالـتزام مطلـوب؛ لكن مع عـدم إلغـاء العاطفة، والعاطفة مطلوبـة، العاطفة الجياشة مطلوبـة، التعاطف مطلوب، الحماس للدين مطلوب؛ لكن مع عدم غيــاب العقل الســليم ورعاية النص، فمن جعل عاطفته حكما عليه في كل تصـرفاته دون رجـوع إلى علم، ودون رجــوع إلى أهل العلم الراســخين فيه ودون رجــوع إلى توجيهات من ولي الأمر أو على قواعد شرعية مبنية فإنه حينئذ يـــــروم عاطفة كما رامها الخـــــوارج أو كما رامها المعتزلة أو كما رامها أهل الهواء، فأهل الأهـواء ما الـذي أوقعهم في أهـوائهم؟ إلا العاطفة الـتي لم تنضـبط بنص ولم تنضبط بمنهج.

خالف الخوارج الصحابة فقتلـوا خـير النـاس في زمنهم وهو علي رَضِيَ اللهُ عنْـهُ، من قتل علي؟ هل قتله أعـداء الإسـلام؟ إنما فتله رجل يقـوم الليل ويصـوم النهـار وهو عبد الرحمن بن ملجم الخارجي.

عبد الــرحمن بن ملجم أرســله عمر بن الخطــاب إلى مصر لما طلب عمر بن العاص قارئا للقرآن يقرئ الناس القرآن، قال أهل مصر يحتاجون إلى قارئ يقـرئ النـاس

القرآن، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عنْهُ في رسالة أرسلها إلى عمر بن العــاص قــال: أرســلت لك رجلا صــالحا هو عبد الرحمن بن ملجم، آثرتك به على نفسي إذا أتـاك فأكرمه واجعل له دارا يقرئ الناس فيها القرآن.

جلس عبد الــرحمن بن ملجم في مصر حــتى ظهــرت حركة الخوارج -وأول ما ظهرت في اليمن ثم في مصــر- أو أخذت في مصر فأثروا عليه لأنه كان كثير الصلاح كثير العاطفة لكنه قليل العلم والفقه وكان منعزلا، فلذلك أتاه الأمر من حيث أتاه وقتل خير الناس علي بن أبي طالب، ولما قِيد للقصـــــاص وقيد منه وأُريد للقتل قـــال لهم: لا تقتلــوني مــرة واحــدة إنما اقتلــوني شــيئا فشــيئا قطّعــوا أطرافي أمامي لأنظر كيف تقطع أطرافي في سبيل الله جل وعلا وامتدحه واحد من أصحابه.

هل كونه خارجيا معنى ذلك أن الناس نفوه بقيت دعوة الخوارج سرية متسلسلة في الناس...

...والوسط الاعتدال يرفضه بل يحـارب أصـحابه؛ لأنهم إن بقوا فإنهم سيضلون الناس فقد حــاربهم علي بن أبي طـالب وحـاربهم ابن عبـاس رَضِـيَ اللـهُ عنْهُما وحـاربهم معاوية وحـــــــاربتهم الدولة الأموية وحـــــــاربتهم الدولة العباسية، إلى وقتنا الحاضر فكل أهل الحق يحـارِبون من يغلوا في الدين إلى الأمر، ولو كان يتـدين بعاطفة جياشة أو يقــول من قــول خــير البرية فــالنبي صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ حذّر من ذلك.

الوسطية مطلوبة في التفكير وفي الحكم على الأشياء وفي منهج التفكير بين نظر البدايات والمآلات:

كثير من الناس ينظر إلى الأمور باعتبار الحاضــر، ينظر إلى الأمــور باعتبــار الواقــع؛ لكن لا ينظر إلى المــآلات، والعقلاء الذين يتبعون الشرع ويــدركون أحكامه ونصوصه

ومقاصده فإنهم ينظرون إلى البـدايات كما ينظـرون إلى المــآلات، وقد قــال بعض أهل العلم: من كــانت بداياته محرقة كـانت نهاياته مشـرقة. من كـان ينظر إلى البداية نظرا سـليما في النظر في أسـباب حـدوث الأشـياء وفي بواعثها لينظر كيف يحكم عليها فإنه سـيكون في نظــره إلى المآلات السـليمة، أما إن كـان لا ينظر إلى البـدايات ولا ينظر إلى الأســـباب والبــــواعث ولا ينظر إلى بعث الشــيء أو كيف حصــر، وإنما ينظر إلى المقصد منه وإذا كـان ما سـيتحقق منه سـليما فـإن بداياته عنـده سـتكون سليمة ولاشك هذا غلط في التفكير؛ لأن التفكير الصحيح أن تنظر إلى البداية وتنظر إلى المآل.

فمن فاته النظر في المآلات فإنه يفوته النظر السليم.

وكثــير من ذوي العاطفة الجياشة وذوي النظر القاصر ينظـرون إلى الأمـور نظـرا سـطحيا بـدون اعتبـار للمـآل والنهاية.

كـذلك نطلب نظـرا وسـطيا في التفريق ما بين الواقع والتنظير.

كثير من الناس ينظر نظريات وخيــالات، هي في نفس الأمر قد تكــون ســليمة؛ لكنها من حيث التطــبيق شــبه مســتحيلة أو مســتحيلة، فهل يســوغ أن يكــون المتفقهة وأن يكـون حملة الشـرع؛ بل أن يكـون النـاس المحبـون للخير أن يكونوا أسيرين لخيالات غـير قابلة للتطـبيق، أن يكونوا أسيرين لتنظيرات لا توافق الواقع؟

الـذي يريد الإصـلاح الصـحيح فيجب أن يعمل من خلال الممكن من خلال الواقع لا أن يجــــــانب الواقع فيعمل تنظيرات يكـره بسـببها الواقع أو يجـانب الواقع من أجل ذلك، كيف تعمل؟

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى إلى قوم أهل جاهلية فهل أبطل جميع ما كان عليه الجاهلية؟ ليس الأمر كذلك أخذ بأحكام الجاهلية في أشياء كثيرة، وجعل من أعمال أهل الجاهلية في كثير من الأمور ميدانا لانطلاق، هذا وهم هل جاهلية، فكيف الأمر إذا كان المسألة في بلد الإسلام أو بين أهل الإسلام أو بين أهل العلم أو في أمور مختلف فيها ما بين اجتهاد وآخر، فكيف يكون الأمر كذلك؟

إنكم مطالبون يا حملة الشريعة ويا دعاة الإسلام وخطباء المساجد وأئمة المساجد؛ بل ويا علماء الإسلام وفقهاء الإسلام أن تكونوا واقعيين في الطرح، فليس الأمر مقبولا إذا كانت أطروحاتنا خيالية أو كانت أطروحاتنا بعيدة عن قبول التطبيق، لا يمكنك أن تطبق على الناس ما لم يكن مقبولا لدى الناس، ما لم يكن مقبولا في مصالحهم، ويجب أن نرعى أحوال الناس وما يختلفون فيه، فالخيالات والتنظيرات ليست بمقبولة.

كذلك في ميدان الدعوة إذا كنا نريد من الناس في ميدان الدعوة أن يكونوا خياليين في ميدان الدعوة؛ يأتون للناس بكلمتهم وتنظيراتهم وتحميس الناس إلى ما ليس بميدانا في التحميس ويكونون خياليين كمن يدعو إلى الجهاد ولا ميدان صحيح للجهاد، كمن يدعو إلى الإنكار باليد ولا ميدان للإنكار باليد إلا من جهة الاختصاص، فيحمل ذلك الناس على الحماس وحينئذ يفرغون حماسهم في طرق غير شرعية، قد يكون من نتائجها ما حصل في الأسبوع الماضي وما قد يحصل مستقبلا.

فيجب أن تـــرعى كلمتك في أن لا تكـــون خياليا في تطـــرح، وأن لا تتكلم بكلام ينزله النــاس على واقع ليس في ذهنك.

بعض المعلمين أو بعض الـــدعاة بعض الأســـاتذة بعض الخطبـاء يقـول كلاما هو في نفسه صـحيح، ويكـون عند الخطيب أو عند الداعية أو عند المعلم أو عند أســــــتاذ الجامعة يكـون عنـده ضـوابط تحجـزه عن أن يزيد في تطـــبيق ما ذكر عن الحد المـــأذون به شـــرعا لكن هو لا يأمن من يخاطب ومن يحدث عن أن يزيد في تطـبيق ما ذكر الحد المـأذون به شـرعا، والحظ قـول الله جل وعلا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ لاَ تَقُولُـواْ رَاعِنَا وَقُولُـواْ انظُرْنَا وَاسْـمَعُواْ**﴾[البقـرة:104]، نهى الله جل وعلا أهل الإيمـان على أن يقولـوا راعنـا، لمـاذا؟ لأن كلمة راعنا تحتمل أن تفهم كما يقوله اليهـود راعنا يعـني من الرعونة والغلظة والشدة، يريد بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وأصـحابه، لما كـــان الفهم يمكن أن يُفهم ســـيئا نهى الله جل وعلا عن استعمال اللفظة وأمر باستعمال كلمة واضحة بيّنة لا لبس فيها ولا غموض.

كذلك الذين يتحدثون للناس عبر الخطبة عبر المســجد عـبر حلقـات الجامعة عـير المحاضـرات الـتي تكـون في الجامعـات أو عـبر الـدروس الـتي تكـون في المـدارس، ويقول كلمة ليسا صحيحة في نفسها، أو يمكن أن تكــون تُفهم على غير فهمها أو توقع المستمع في اللبس، ثم هو لا يوضـح، ثم حينئذ يكـون شـريكا في البعد عن الاعتـدال ويكون شريكا في عدم الفهم الحسن.

كـذلك يجب علينا أن ننظر إلى قـول النـبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**» وهـــــذا الحـــــديث في

الصــحيح كما هو معــروف، (**يحب الرفق في الأمر كله**) في الأمر كله يعني في الكلمة تكون رفيقـا، في التفكـير تكون رفيقا، في الإرشاد تكون رفيقـا، في الطـرح تكـون رفيقا، فالرفق مطلـوب؛ الله جل وعلا رفيق يحب الرفق في الأمر كلـــه، فهل نريد غـــير محبة الله جل وعلا؟ هل نريد غــير ما يرضى الله جل وعلا عنــه؟ فـإذا كنت غــير رفيق في أمـــرك، في تفكـــيرك، في مقاصـــــدك، في أطروحاتــك، في إرشــادك، في ما تقــول وما تــذر، في أعمالـــــــك، في الحكم على الأشـــــياء، والحكم على التصورات والحكم على الأشخاص، فحينئذ تكون قد فوت أعظم شيء وهو محبة الله جل وعلا لك.

الوسطية في الدعوة مطلوبـة، الـدعوة تحتـاج منا إلى تنظيم، تحتاج منا إلى ترتيب، تحتاج منا على تعــاون على الــبر والتقـوى؛ لكن هـذه الـدعوة حيث إنه لا يصـلح فيها الفوضوية بل يجب أن يتعاون فيها أهل الحق وأهل الخير يتعاونوا فيها، فإنه لا يجوز أن تكون فيها مغـالين فنـذهب في الـدعوة إلى تنظيمـات بدعية أو تنظيمـات سـرية أو إلى حزبية.

فالدعوة الحق بين التنظيم السري والحزبيــات المقيتة وبين الموالاة والمعاداة وعلى رمـوز دعـوة متوهمـة، وما بين الفوضوية التي لا تُنتج دعوة.

نحتـاج إلى تعـاون على الـبر والتقـوى وفق منهج أهل السنة والجماعة ووفق التطاوع، فالطاعة لا تجوز في بلد الإســلام إلا لـــولي الأمـــر، الطاعة المتوهمة لجماعة أو لدعوة أو لحزب أو نحو ذلك هذه ليست شرعية.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

حين أرسل عليا وصـــاحبه إلى اليمن، مع أن أحـــدهما كــان أمــيرا للســفر، فحينما أتى أمر الــدعوة قــال لهما

«تطاوعا ولا تختلفا ويسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا» فليس ثَم مجال لطاعة مطلقة وفق تنظيم سري أو فق حزبية مغلقة؛ بل التنظيم يكون وفق تنظيم ولي الأمر، والطاعة تكون وفق طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله ثم طاعة ولي الأمر فيما ليس فيه معصية.

إذا كان الأمر كذلك فنحتاج إلى تعاون في الدعوة على البر والتقوى وإلى تكاتف، وإلى أن نكون في الإطار الذي أذن به ولي الأمر، والإطار الذي لا ينتج مفاسد، أما الإطارات الأخرى التي يتكلم فيها الناس أو قد تكون موجودة في بعض البلدان، ونخشى أن تكون موجودة عندنا أو تنتقل إلينا من تنظيمات سرية أو حزبيات مبتدعة، فإن هذا مخالف للمنهج الوسط ولطريقة أهل السنة والجماعة، فما كون إمام من الأئمة أئمة الإسلام -مع ما حصل في زمنهم- ما كونوا جماعة خلاف ما أقره ولي الأمر.

فهل كانت غير نوح عليه السلام التي لم ثَم أعلى منها في زمانه هل كافية في أن يزول الشرك أو أن تزول الوثنية التي كانت في زمنه؟ لم يكن الأمر كذلك، هل كانت كافية لتنزل نصر الله جل وعلا عليه إذ ذاك؟ لم يكن الأمر كذلك؛ بل مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾**[العنكبوت:14]، الصبر الطويل صبر تسعمائة وخمسين سنة مع وجود الغيرة العظيمة والعاطفة الجياشة منهج يجب أن نكون عليه.

من ينظر اليوم إلى مشاكل الأمة وما هي فيه في كثير من الأصقاع من جهل بدين الله من بعد عن توحيد الله جل وعلا الخالص من وجود لشركيات مختلفة، من وجود

لبدع مختلفة، من وجود لمنكرات مختلفة، هل حلها يكون بغيرة متوهمة؟ هل حلها يكون بالإنكار باليد؟ هل حلها يكون بالسعي فيما لا يرضي الله جل وعلا من وجود مثل هذه الجرائم والتفجيرات التي حصلت؟ كيف تحل مشاكل الأمة بجهد أبناء الأمة لابد أن نكون في ذلك وسطا بين الذين كأن الأمر لا يعنيهم ولا يسعون في حل مشكلات الأمة وبين الذين يغالون فيذهبون إلى طريق الخوارج أو طرق بدعية ظالمة بما فيها من سلوكيات وسبل منحرفة.

الأمر وسط في أن نعمل جهدنا وفق المنهج الشرعي في أن نعمل متكاتفين متعاونين، وأن نحصر مشاكل الأمة وأن نسعى فيها وأن نبذل بالدعوة بالخير والإصلاح والمناصحة وفق المتاح ووفق الشرع المطهر ووفق المأذون به، فمن حل مشاكل الأمة بخيالات وتنظيرات فإنه سيكون أسير هذه الخيالات والمشكلات دون حل لها.

كذلك نكون وسطا في النوازل التي تقع في الأمة: بين تأزيم النوازل وبين الإسهام في حلها.

الأمة مستهدفة ولاشك، أمة الإسلام بعامة وبلدكم هذا بخاصة مستهدف بلا شك، فكيف تكونون تجاه ذلك؟

يجب أولا على مستوى هذا البلد المبارك الذي هو معقل الإسلام ومأرز الإيمان والمكان الذي انطلقت الرسالة الخالدة وانطلقت منه دعوة التصحيح والتجديد، والذي تنطلق منه اليوم بشائر الخير بما ترعاه الدولة وترعاه مؤسسات هذا البلد من وزارات وهيئات وجامعات ومؤسسات خيرية وما يرعاه علماء ودعاة ويرعاه الناصحون، الجميع يجب أن يتكاتف في رد الأزمات وعلاج الأزمات، لا أن نكون مؤثرين في الناس

في أن نزيد من الأزمة، جاءت أزمـات وكثـير من النـاس زاد من الأزمة بفعله أو يهيجانه أو بتحميسه أو بكونه كأن الأزمة لا تعنيه، وأن لا يؤثر فيها، الـواجب علينا أن نكـون مؤثرين بالمنهج الوسطي، وأن نعمل وفق المتــاح وأن لا نكــون متفــاعلين مع الأمــور بطريق غلــط، أن نكــون محمســين بطريق خاطئة أن نكـون مغـالين في الأمـور فــالمطلوب منا أن نحافظ أولا على توحيد الله جل وعلا، وأن نكــون محــافظين على وحــدة الكلمة على طاعة الرسـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، ثم ثالثا على وحـدة الكلمة واجتماع الصف.

مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ أهل الجاهلية وألّف فيها الإمــام المصــلح ابتدأها بثلاث مسائل هي أعظم المسائل التي خالف فيها أهل الإسلام أهل الجاهلية خالف فيها الرسول صَلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل الجاهلية.

الأمر الأول التوحيد فكـــان أهل الجاهلية أهل شـــرك فدعاهم إلى التوحيد.

الثـاني طاعة الرسـول صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أهل الجاهلية ما يقيمـون طاعة لمقـدم فيهم فخـالفهم بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثــالث طاعة ولي الأمــر، كــان أهل الجاهلية يــرون الفوضـى، لم يكن في مكة أمـير عليها ولم يكـون هنـاك في البلد أمير عليها، فدعا النبي صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ إلى طاعة ولي الأمر.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعد سرد هـذه المسائل: فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فعظم هـذه المسائل الثلاث وأبدى وفيها وأعاد.

وهذا هو الذي يجب علينا أن نبـدي فيها ونعيـد، فالـذين يؤزمون النوازل فإعطاء الشكوك والأوهام وطـرح الشك وطرح سوء الظن ويذهبون بعيدا عن الـدعوة إلى وحـدة الكلمة واجتمـاع الصـف، فـإن هـؤلاء يسـعون إلى ما فيه خلاف الصالح شرعا وإلى الغلو فيما يطرحون.

فالواجب حينئذ في المسـائل والنـوازل أن نسـعى في عـدم تـأزيم النـوازل وأن نسـعى في حلهـا، فـالنوازل إذا وقعت تحل بالشرع تحل بالعقل والحكمة والأناة.

الوقت يضـايقنا عن المضي في هـذه المسـائل، نحتـاج إلى تنبيهكم إلى نقاط، ربما أنتم تبحثون فيهـا، وحبـذا أن تكون بحوث في هذه الأمور التي سأذكرها باختصار؛ لأنها مهمة في توجيه الناس وتوجيه الشباب بل توجيه الأمة.

الاعتـــــــدال في السياسة بين المبالغة في النظر إلى السياسة وما بين الـــترك، كثـــير من النـــاس ينظر أنه بســماعه لقنــاة فضــائية أو بقراءته لتقرير صَــحفي أنه مؤهل للنظر في السياسة.

السياسة صـعبة حـتى عند الـذين عنـدهم مؤسسـات كبـيرة تـدعمهم بالمعلومـات وعنـدهم أجهـزة تحـري، فليست السياسة بـالأمر السـهل الـتي يحكم فيها أفـراد الناس بأن هذا أمر حكمه كـذا، وأن هـذه قضـية يجب أن ننظر فيها كذا.

والواجب حينئذ أن نكون متوسطين في السياسة، فهم الأمـــور السياســـية مطلـــوب لكن يجب أن تثق في حل الأمور السياسية، أن تثق بولي الأمر، أن تثق بمن أعطي في ذلك؛ لأنه عنده من الأجهزة والنظر والإدراك لمصالح الأمة ما ليس عند الأفراد.

فمن كـــان عنـــده نظر في تقرير صـــحفي أو في رؤية قضـــاة فضـــائية وحينئذ يجعل نفسه قائما بـــأمر الأمـــور

السياسـية، وكأنه الـذي عنـده الغـيرة على الأمة وغـيره ليس عنده غيرة على الأمة فإنه قد بالغ وترك الاعتدال.

الاعتــــدال في السياسة بين الفهم والقناعة ليس كل الأمــور يمكن أن تفهم لكن يجب أن تحــاول الفهم قد لا تدرك القانعة التامة.

الاعتــدال في السياسة بين الاتهــام المطلق وما بين التبرير المطلق، هنـاك من يبـالغون في الاتهـام، يتهمـون بــأول خــاطر، وهنــاك آخــرون أيضا في الطــرف الآخر يبـالغون في التـبرير لكل شـيء والعاقل المـدرك العـالم طالب العلم صاحب الحق فإنه يكـون وسـطا بين الاتهـام وما بين التــبرير يكــون متفهما مــدركا يعــرف الأمــور ومآخذها.

الوسـطية بين الـوطن والأمــة، الوسـطية بين الأهم والمهم.

نحتـاج إلى بحث في الـوطن والأمـة، منا من قد يفـرق في وطنه الـذي هو مخـاطب أساسا لوجـود الولاية عليه ولوجود مصالحه ومصـالح من يكونـون حوله فيـه، يفـرط في وطنه رعاية لمصـالح الأمة كلهـا، وهـذا ليس بسـليم مصالح الأمة مطلوبة أن تُـرعى وأن يحافظ عليهـا؛ ولكن أولا أن يحافظ على مصالح الوطن لأن هذا أنت مخـاطب فيه أولا ابدأ بنفسك ثم بمن تعول، ابدأ بنفسك أولا وبمن حولك في المحافظة فمن أضـاع المحافظة على الـوطن من جهة النظر إلى المحافظة على الأمة فإنه لن يـــدرك المحافظة على الأمة ولن يدرك المحافظة على الوطن.

فلابد أن تكـون الأمـور بمقـدماتها تحافظ على وطنـك؛ لأنه الأهم وتجتمع كلمتنا على ذلك، ونسعى في هـذا؛ في أن نكون مؤثرين في الأمة ساعين في مصالحها.

كــذلك الأهم والمهم هنــاك من لا يــرعى الاعتــدال في ذلك يقدم كل شيء عنــده مهم لا، العقلاء من أهل العلم والــدعوة وأهل التوجيه يــرون أن تقــديم الأهم مطلــوب يرون حتى ولو فوّت مهما أو مهمات كثيرة.

لابد أن تــرعى الأولويــات أن تبــدأ بــالأهم وأن تــؤخر المهم، لابد من أن نكــون أهل إدراك لأن شــريعتنا أمرتنا بـــذلك أن نكـــون أهل فهم، أهل نظـــر، وأن لا نكـــون متعجلين متــوانين في أمورنــا، وأن نكــون وســطا بين طرفي الإفراط والتفريط، بين طرفي الغلو والجفاء.

نسأل الله جل وعلا أن يوفقني وإيــاكم لما فيه رضــاه، وأن يجعلنا من النمط الذين وصفهم علي بن أبي طــالب الخليفة الراشد ورابع المبشــرين بالجنة رَضِــيَ اللــهُ عنْــهُ وأرضاه وصفهم بقوله: خير الناس والنمط الأوسط الذين يرجع إليهم الغالي والجافي. وهذا هو المطلوب منكم.

أســــــــــأل الله لي ولكم التوفيق اللهم اجمع كلمة المســلمين على الحق والرشد والســداد، اللهم وفق ولاة أمورنا إلى الخير واجعلنا وإياهم من المتعاونين على الــبر والتقــوى واجــزهم خــيرا عن كل ما يقدمونه عن الإســلام والمســـلمين، اللهم نســـألك التوفيق في أمورنا كلها وأن تجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى.

شاكرا مجددا لمعالي مدير الجامعة هذه الفرصة وهــذا الإكرام بهذه الزيارة، ومقابلة إخوتي جميعا سائلا المولى جل وعلا لي ولكم الرشد والســـداد في القـــول والعمل وأن يعيـــــذنا من الزلل والزغل في الطريق والقـــــول والمسار إنه جواد كريم.

وآخر دعــواي أن الحمد لله رب العــالمين، وصــلى الله وسلم على نبينا محمد.

أعدّ هذه المادّة: سالم الجزائري